

## مراجعة كتاب مغامرات ابن بطوطة: الرحالة المسلم في القرن الرابع عشر الميلادي

Book review of *The Adventures of Ibn Battuta:  
A Muslim Traveler of the Fourteenth Century*

المؤلف: روس إ. دان .Dunn .E Rose

ترجمة: أحمد بوحسن.

عنوان الكتاب: مغامرات ابن بطوطة: الرحالة المسلم في القرن الرابع عشر الميلادي.

العنوان الأصلي: *The Adventures of Ibn Battuta: A Muslim Traveler of the Fourteenth Century*

الناشر: دار توبقال للنشر، سلسلة المعرفة التاريخية، الدار البيضاء.

سنة النشر: 2020.

عدد الصفحات: 430 صفحة.

\* أستاذ التعليم العالي، تخصص التاريخ وديكتيك التاريخ، المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، مكناس، المغرب.

Professor of Higher Education, Majoring in History and Didactic History, Regional Center for Education and Training Professions, Meknes, Morocco.

يرنو كتاب مغامرات ابن بطوطة: الرحالة المسلم في القرن الرابع عشر الميلادي، لروس إ. دان، إلى التنبيه على أهمية البعد العالمي للحضارة الإسلامية من خلال رحلة تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة، التي تُعدّ معيارًا لقياس نظرة المسلمين إلى أنفسهم وإلى الآخر؛ إذ هي مدخل لتجريب التاريخ المقارن في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، الذي تفاعلت أحداثه في جغرافيا تاريخية، تشابكت فيها القوى الحضارية، وغدت "منطقة مترابطة" بالنصف الشرقي للعالم، لتعكس طبيعة الفاعلين في دار الإسلام، في نهاية العصر الوسيط، وأفرزت رحلة هي "حكاية مغامر رفيع، وصورة موسعة كذلك عن عالم واسع يعج بالأمرء المسلمين والتجار والعلماء والفقهاء" (ص 23).

## أولاً: سياق الكتاب وإشكاليته

تقتزن رحلة ابن بطوطة بسياق تاريخي وتحولات حضارية في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، الذي بدأت تشكل فيه ملامح الانتقال من التوازن إلى "التجاوز" الذي حققته أوروبا على حساب العالم الإسلامي<sup>(1)</sup>. وهو ما يستفاد من طبيعة بعض الأحداث التي جسدت المنعطفات المؤثرة في مجريات المرحلة، والتي أدت إلى سقوط متزامن للخلافتين العباسية (656هـ/ 1256م) والموحّدية (668هـ/ 1269م)، وما أحدثه ذلك من فراغ سياسي في العالم الإسلامي، جعل سؤال الشرعية السياسية أولويةً الدول المتنافسة آنذاك<sup>(2)</sup>.

كما يكتسب الكتاب سياقه من ظروف ترجمته المتمثلة في الصلات الأكاديمية والاجتماعية بين المؤلف والمترجم، وهي علاقات أعطت الترجمة بُعدها الاحترافي، ليس من حيث اللغة الموظفة فحسب، لكن بفضل تمكّن المترجم أحمد بوحسن من الخلفية الفكرية للمشروع العلمي للباحث الأميركي الذي له معرفة بتاريخ المغرب؛ إذ سبق لبوحسن أن ترجم له أطروحته لنيل درجة الدكتوراه من جامعة ويسكونسن<sup>(3)</sup>.

أفرز ذلك علاقةً مباشرة بين المترجم والمؤلف الذي رغب في ترجمته، ومن ثمّ أغنت الكتاب الذي بين أيدينا، واعتمد المترجم على الطبعة الثالثة الصادرة في عام 2012، بعدما صدرت الطبعتان الأولى والثانية على التوالي في عامي 1986 و2005 (ص 13).

يستمد الكتاب عمقَ إشكاليته مما راكمه المؤلف، باعتباره من المطلّعين على الحضارة الإسلامية، من خلال امتهانه التدريس، في مركز الدراسات الإسلامية العربية CIAS، في جامعة سان دييغو. وكان لهذا الجانب أثر في معرفته بمكامن تفوّق المسلمين في العصر الوسيط، ليصحّح بذلك بعض التمثلات المنتصرة لرواد الاكتشافات الجغرافية، أمثال ماركو بولو، ودورهم في تيسير الطريق التجارية نحو آسيا، على حساب ما قام به الرحالة والجغرافيون المسلمون، ومنهم ابن بطوطة.

1 عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)، ط 2 (الدار البيضاء/ بيروت: المركز الثقافي العربي، 2012)، ص 24-5.

2 محمد القبلي، المجتمع والحكم والدين بالمغرب في نهاية "العصر الوسيط"، تقديم كلود كاهين (الرباط: منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، 2017)، ص 30-40.

3 Ross E. Dunn, *Resistance in the Desert Moroccan Responses to French Imperialism* (London: Croom Helm; Madison Wis.: The University Wisconsin Press, 1977);

روس إ. دان، المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي: المواجهة المغربية للإمبريالية الفرنسية 1881-1912، ترجمة أحمد بوحسن، مراجعة عبد الأحد السبتي (الرباط: منشورات زاوية، 2006).

مما زاد من هذه الصورة النمطية لدى الأميركيين، أن هناك تراثاً تعرّض للطمس والتشويه؛ فرحلة ابن بطوطة تعرّف عليها النساخ؛ ما جعل المتداول منها إما مجرد مختصرات، وإما طبعات ناقصة أو مشوّهة.

من ثمّ نلحظ أهمية العمل الاستشراقي في حسن التعامل مع التراث الإسلامي؛ إذ يعود الفضل إلى الباحثين شارل ديفرميري Charles Defrémery (1822-1883) وبنيامينو رافاييلو سانجيتي Beniamino Sanguinetti (1811-1883) اللذين نجحا في العثور على نسخة تامة من **تحفة النظّار**، ونشراها في عام 1858، لكنّ تداولها العلمي ظلّ محصوراً في بعض الدارسين؛ ما حدّ من إعطاء صورة إيجابية عن ابن بطوطة.

يعتبر انكباب دان على دراسة "مغامرات ابن بطوطة" أنموذجاً للمكانة التي ما فتئ يحظى بها صاحب الرحلة في أوساط البحث التاريخي الغربي، ولا سيما المدارس الأنكلوسكسونية المعاصرة التي تحرّرت من سياق القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين الذي وجه الاستشراق الإسباني والفرنسي والبريطاني في ظل التعرف إلى العالم الإسلامي من أجل استعمارهم<sup>(4)</sup>. وهذا ما يفسر الحيز الزمني الذي استغرقه تأليف الكتاب الذي يعدّ حقاً مغامرة في الزمن والأمكنة والمضامين، خاضها الباحث على مدى عشر سنوات، تحوّل بفعلها إلى "مشاء" يتعقّب خطى ابن بطوطة عبر الدول التي زارها. فكيف تبدو صورة ابن بطوطة في "مغامراته" كما كتبها روس إ. دان؟

نهج المؤلف أسلوباً في التأليف يقوم على ثنائية بنوية تدمج الجزئيات والتفريعات في الأصول والكليات؛ ما ولّد نمطاً جديداً من البيوغرافيا التاريخية، يقوم على طريقة خاصة في الكتابة، لأنه لم يركز على الغرائبي والمتخيّل والأسطوري. لكنه لم يغفل في الوقت نفسه عن الجوانب النفسية والوجدانية لدى ابن بطوطة، وربط ذلك كله بالسياقات الكبرى للمرحلة التي شكلت أحد المنعطقات العميقة التي عرفها العالم الإسلامي في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

هكذا، تتفاعل الأحداث والمجالات والثقافات في إشكالية متداخلة الأنساق والسياقات والمساقات، لتنصهر سيرورة الرحلة بصيرورة المرحلة، وتحوّل **تحفة النظّار** من معطى ثقافي مكتوب أو "آلة كسول"، بحسب تعبير أمبرتو إيكو<sup>(5)</sup>، إلى قرينة نابضة بالنجاعة والحيوية. وهذا ما يكسب الرحلة قيمتها التاريخية والراهنية في الآن نفسه، من حيث إن مضمون الرحلة معاصر لنفسه على صعيد السياق والمحتوى المعرفي من جهة، ويجعل تأويلها المقروء معاصراً لنا على صعيد "الفهم والمعقولية" من جهة أخرى؛ لأن "إضفاء المعقولية على المقروء من طرف القارئ معناه نقل المقروء إلى مجال اهتمام القارئ، الشيء الذي قد يسمح بتوظيفه من طرف هذا الأخير في إغناء ذاته أو حتى في إعادة بنائها"<sup>(6)</sup>.

وجد دان في **تحفة النظّار**، كما يقول المترجم، "مادة تاريخية وجغرافية وحضارية وفكرية وثقافية ودينية تساعده على محاولة تصحيح صورة الإسلام، بشكل متواضع، في بلده أمريكا بأسلوب يجمع بين صرامة البحث التاريخي ووعي الأستاذ الجامعي وخبرته، وتقريبها من القارئ من خلال وضعها في سياقها التاريخي والثقافي والحضاري، بالكتابة عن مرحلة تاريخ العالم لما كان المسلمون يساهمون في شبكة التبادل التجاري والثقافي" (ص 8).

4 إبراهيم بوطالب، "البحث الكولونيالي حول المجتمع المغربي في الفترة الاستعمارية: حصيلة وتقويم"، في: **البحث في تاريخ المغرب: حصيلة وتقويم**، سلسلة ندوات ومناظرات (14) (الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس - أكادال بالرباط، 1989)، ص 107-173.

5 Umberto Eco, *Lector in Fabula ou la Coopération interprétative dans les textes narratifs*, Myriem Bouzaier (trad.) (Paris: Bernard Grasset, 1985), p. 29.

6 محمد عابد الجابري، **نحن والتراث: قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي**، ط 6 (الدار البيضاء/ بيروت: المركز الثقافي العربي، 1993)، ص 11-12.

بذلك نستشف طبيعة كتاب **مغامرات ابن بطوطة**؛ فهو ليس سيرة غيرية، ولا دراسة نقدية، بقدر ما هو عمل سردي يقدم حياة ابن بطوطة وأسفاره، لبناء شخصيته من خلال تقنية تحليل مضمون الرحلة، المشبعة بمضمرات تعكس الميول النفسية والفقهية والعقدية والصوفية لصاحبها، وسوسولوجية قيمه وأخلاقه، من دون إغفال سياق المرحلة، ما جعل دان يبحث ليوميات السَّفَر عن كليات ومعانٍ ودلالات، أو علامات بالمعنى السيميائي، تبرز الانتظامات والترابطات العميقة والاتجاهات الكبرى التي تعكس الملامح الكونية في الحضارة الإسلامية في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وكفايات المسلمين وقدرتهم على التأقلم مع الآخر. وبناء عليه، فإن المؤلف "انشغل أكثر بما توحى به شخصية ابن بطوطة، العالم الرحالة المغربي المالكي المسلم، في علاقته بالعوالم التي مرّ منها أو أقام فيها، فكشف عن مختلف جوانب تربية العالم الفقيه المسلم، وهمّته العالية وطبيعته الاجتماعية التي تتكيف بسرعة مع محيطها وتنسج علاقات اجتماعية بسهولة، مما ساعده على التقرب من السلاطين والملوك والأمراء وكبار القوم. كما كشف عن طموحات هذه الشخصية العاملة التي أخذت تتضح أكثر فأكثر مع تواصل مسار الرحلة" (ص 9). ومنها قدراته على تولي القضاء، وميوله السياسية وطموحه إلى السلطة، ما سبّب له مشكلات كادت تودي بحياته، ودرجة تحمّله وتحديده وإصراره الذي مكّنه من إتمام الرحلة.

لذلك، تحولت الرحلة، وفق منظور دان، إلى عمل أدبي تتعالق فيه السيرة الذاتية بوصف تفاعلات المجال والمجتمع والسلطة والثقافة؛ ما جعل النص الرحلي، في **تحفة النظّار**، يكسّر الحواجز ويعيد النظر في طبيعة العلاقة بين المضامين النصية والأجناس المصدرية<sup>(7)</sup>.

وهكذا، تتمثل طبيعة إشكالية **مغامرات ابن بطوطة** في بعدها المزدوج والجمع بين مقصدين؛ يهدف أولهما إلى التعريف بالمسالك والممالك التي عبرها ابن بطوطة، وتصوير شخصيته ونمط إحساسه وتفكيره وفعله، ووضع ذلك في السياق العام للحضارة الإسلامية وقتئذٍ، وما أتمت به الجغرافيا التاريخية لـ "دار الإسلام" من شساعة مجالية وتنوع عرقي وفكري أغنى تجربة السيادة الإسلامية في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. أما المقصد الثاني فغاياته إبراز كفايات ابن بطوطة، "الفقيه اللطيف المتوقد الذهن"، وتشبعه بالانفتاح والتسامح مع الديانات والثقافات الأخرى. ولا سيما أن المؤلف اعتمد في رسم ملامح الرحالة المسلم على توظيف التكنولوجيا الحديثة لإعادة بناء المشاهد الوسيطية التي زارها، من خلال طبيعة المواقع التي ركز عليها في الصور التي التقطها بنفسه وأدرجها في الكتاب الذي تعرّز أيضاً بخرائط تضم معطيات تاريخية محيئة.

استفاد المؤلف في هذا الصدد من تجربته في تدريس تاريخ الحضارة الإسلامية الذي أفاده بالوقوف على قصور المنهج التعليمي الأميركي وعدم اكتراثه بإدراج هذا المكوّن التاريخي في برامجها، ما أفرز سوء فهم لتاريخ الإسلام في الولايات المتحدة الأميركية حتى حدود سبعينيات القرن العشرين، في مقابل اهتمام أكثر بالحضارة الغربية، بدليل القيمة المعرفية التي كانت تحظى بها رحلة ماركو بولو الإيطالي (1254-1324) على حساب الفكر الجغرافي والرحلات التي قام بها المسلمون، ومنها رحلة ابن بطوطة<sup>(8)</sup>.

حققت **مغامرات ابن بطوطة** الإمتاع والمؤانسة بفضل تكامل المنهج والمفاهيم والمعرفة؛ فكانت التوأمة في الكتاب بين تتبع البقاع والغوص في أعماق الطباع التي تضمهرها "تحفة النظّار"، فغدونا أمام تاريخ جديد للعالم الإسلامي، يفتت النبوة ويصحح الرؤية النمطية للغرب إزاء تاريخ الدين والتدين لدى المسلمين من خلال رحلة انطلقت من طنجة في اتجاه المغرب وآسيا والسودان الغربي، من فتى مسلم لا يتجاوز عمره 21 عامًا، ذي ميول علمية وعالمية، وثقافة حضرية، لأنه كان "ينتقل في أوساط أصحاب التفكير العالمي

7 عبد الأحد السبتي، **بين الزطاط وقاطع الطريق: أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار** (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2009)، ص 303.

8 شمس الدين أبو عبد الله اللواتي الطنجي ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، قدم له وحققه ووضع خرائطه وفهرسه عبد الهادي التازي، مج 1 (الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1997)، ص 91. تولدت من ذلك المنظور محاولات غربية لتحقيق العالم والبحث عن الجذور التاريخية للعودة، لم يكن فيها للعالم الإسلامي أي تأثير، ولا سيما المرحلة التي ينتمي إليها ابن بطوطة وماركو بولو. ينظر: توماس ل. فريدمان، **العالم مستو: موجز تاريخ القرن الحادي والعشرين**، ترجمة حسام الدين خضور (دمشق: دار الحصاد للنشر والتوزيع، 2006)، ص 15-17.

الذين كانوا يمثلون القيم الكونية والمؤسسات العالمية للإسلام"، ولم يكثرث إلا "بالنخب السياسية والثقافية في الرحلة على حساب الجماهير" (ص 25).

## ثانياً: القضايا المحورية للكتاب

تتولد من قراءة **مغامرات ابن بطوطة** صورة مشهد متعدد الأبعاد، تتراءى إحداثياته المجالية وتراثيبيته المجتمعية والسياسية ونسبجه المؤسساتي وبنيوبيته الثقافية؛ إذ استغرقت الرحلة، بحسب المعطيات الكمية التي قدمها دان، نحو تسع وعشرين سنة (في الفترة 726-755هـ / 1325-1354م)، زار خلالها ابن بطوطة أربعين بلدًا في أفريقيا وآسيا وأوروبا، وتقدر مسافتها بحوالي مئة وعشرين ألف كيلومتر (ص 9).

ولما كانت غاية المؤلف هي ربط جزئيات السفر بالكليات الحضارية للقرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، فإنه ساير ابن بطوطة منذ خروجه من طنجة متعقبًا سفره إلى جنوب شرق آسيا والصين، مرورًا بالمغرب الأقصى المريني والأوسط الزباني وأفريقيا الحفصية ومصر المملوكية وبلاد الحجاز وفارس والعراق وبحر العرب والأناضول والسهب والهند ومالابار والمالديف والصين، وبعدها الرجوع إلى البلد الأصلي، ومنه إلى الأندلس النصرية، ومملكة مالي.

قد تكون عودة ابن بطوطة إلى المغرب وإملاء رحلته على ابن جزي الكلبي الأندلسي بأمر من السلطان المريني أبي عنان (749-759هـ / 1348-1357م) من القضايا المعتادة التي أُلّفها المغرب الوسيط. غير أن النفس الذي أعطاه دان إلى **تحفة النظار** هو الذي جعل الأنظار تشدّ إلى الرحلة، بما فجره، من خلال مضمونها وسياقها، من إشكالات وقضايا أساسها التفاعل الحضاري بين "دار الإسلام" وما جاورها من حضارات في النصف الشرقي للكرة الأرضية في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، التي أبرزها المؤلف من خلال منهجية تأليف سياقية؛ إذ مهّد للمسالك والممالك التي مرّ منها ابن بطوطة أو أقام فيها بتوطئة تاريخية تركز على الجوانب السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، حتى يدمج الرحلة في إطارها الحضاري العام.

بذلك تنوعت القضايا والظواهر في الرحلة كما صورتها **مغامرات ابن بطوطة**؛ فتفاعلت المسالك والممالك، والدين والتدين، والحلال الذي أقبل عليه ابن بطوطة والحرام الذي تورع عن إتيانه، والأحكام الشرعية التي تعايشت مع الأعراف الاجتماعية وأنماط العيش، والمذاهب والعقائد، والعلم والتصوف، والنظم والولاءات، والطموح السياسي والمعاطب والمهالك الاجتماعية، والحظوة لدى الملوك والفضل في تحقيق المرامي. وبالمثل تماهت الوقائع بالنظم والمؤسسات الدينية والإدارية والإنتاجية، والقيم والعوائد، والنخب والجماهير.

كما تحضر الجغرافيا التاريخية بقوة في "التحفة" من خلال "المغامرات"، غير أن الدلالة الحضارية الأشدّ إثارة هي طبيعة العلاقة التفاعلية بين الإنسان والمجال والثقافة في العالم الإسلامي آنذاك، والمتجسدة في تركيز ابن بطوطة على الأمصار الكبرى، ما دام الفكر العمراني للمسلمين اهتم وقتئذٍ بالبلدان على حساب الحواضر<sup>(9)</sup>.

9 يتأكد هذا من خلال طبيعة المصنّفات الجغرافية الإسلامية التي تدخل ضمن كتب البلدان، والتي تنحو في بنية تأليفها نحو التركيز على البلدان، وهو ما يستشف من **البلدان لأبي حنيفة الدينوري** (ت. 282هـ / 895م)، و**البلدان لأبي العباس البعقوبي** (ت. 292هـ / 904م)، و**البلدان لابن الفقيه الهمداني** (ت. 365هـ / 975م)، و**معجم البلدان لياقوت الحموي** (ت. 626هـ / 1228م)، و**تقويم البلدان لأبي الفدا** (ت. 732هـ / 1331م)، وغيرها من كتب الجغرافيا والبلدان والرحلات. ينظر: وجيه كونتراني، **تاريخ التاريخ: اتجاهات- مدارس- مناهج**، ط 2 (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013)، ص 63-67، 82-83؛ عبد الأحد السبتي وحليمة فرحات، **المدينة في العصر الوسيط: قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي** (الدار البيضاء/ بيروت: المركز الثقافي العربي، 1994)، ص 8-8. وعن ملامح الأدب الجغرافي

من القضايا الجديرة بالاهتمام في **مغامرات ابن بطوطة** هو لفت دان الانتباه إلى الزواج المتكرر لصاحب **تحفة النظار**، والإشارات إلى أولاده الذين اعتاد تركهم، وعدم ذكره زوجته. يضاف إلى ذلك الحديث عن الثروة التي اكتسبها ابن بطوطة عبر مسار الرحلة بفضل الهدايا الملوكية التي تلقاها، والحظوة التي تمتع بها لدى أعلام السلطة والعلم والولاية، والأماكن التي زارها وأقام فيها، مثل القصور والمساجد والربط والزوايا والخوانق والمدارس، والتي تعكس مظاهر التدين في شخصيته من خلال تداخل الفقه والعقيدة والتصوف لديه. إننا أمام "مفهوم الإنسان الكلي" و"التوجهات العالمية داخل الحضارة الإسلامية" (ص 10 و25)، كما يصورها دان الذي يكشف عن بنية تأليف للكتاب بقوله: "هذا الكتاب، في الحقيقة، هو تأويلي الخاص لحياة ابن بطوطة وزمانه، وليس صورة للقرن الرابع عشر الميلادي 'بعينه'، وليس تعليقاً كذلك على ملاحظاته الموسوعية. وبعبارة أخرى ليس كتاباً عن كتابه، ومع ذلك فإن موضوعه يعكس بشكل كبير تجربته الاجتماعية وتصويراته الثقافية" (ص 25).

أبرز روس إ. دان ابن بطوطة بصفته الإنسان المتحضر، والمسافر المتحرر من كل مظاهر التعصب الديني والعربي، بفضل إيمانه بالتسامح والتعايش مع الآخر وتفهم ثقافته؛ ما جعل "دار الإسلام" تبرز في **مغامرات ابن بطوطة** باعتبارها حقيقة اجتماعية.

أسعف هذا المفهوم المؤلف في تحطيم الرؤية النمطية للتاريخ الذي ما عاد مركزاً على المنظور التقليدي للبطل، ولم تبق الأحداث السياسية والعسكرية، من قبيل قيام الدول وسقوطها وأخبار المعارك والفتن والتمردات، بؤرة الاهتمام لدى المؤرخ، إنما غدا الحديث عن الأبعاد الكونية للمؤسسات والممارسات والتفاعلات الاجتماعية والإنتاجية والعلمية هو أساس صناعة التاريخ، كما تمثلها **مغامرات ابن بطوطة** التي تكشف البعد الاندماجي للإنسان بالمجال والفكر، وانصهار ذلك كله في وعاء بنيوي ذي صيرورة متعددة الأبعاد والإيقاعات؛ إننا في مشهد تحطمت فيه "أصنام قبيلة المؤرخين" *Idoles de la tribu des historiens*، بحسب تعبيرات مدرسة الحوليات، المتمثلة في "الصنم السياسي *L'Idole politique*"، و"الصنم الفردي *L'Idole individuelle*"، و"الصنم التاريخي *L'Idole chronologique*"<sup>(10)</sup>، لإعادة بناء **تحفة النظار**، برؤية تركيبية ومتداخلة تتجاوز جزئيات اليوميات والتعاقب الزمني للأحداث إلى التوليف بين السيرة الذاتية والتاريخ الحضاري للقرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي؛ فكانت تحفة ابن بطوطة بحق تعبيراً عن "خيار الأخبار وأخبار الأخبار"، وبؤحاً بما "شاهده في رحلته من الأمصار، وما علق بحفظه من نوادير الأخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخبار وأولياؤها الأبرار؛ فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، من كل غريبة أفاد باجتلابها، وعجيبية أطرف بانتخابها"، بعدما "طاف الأرض معتبراً، وطوى الأمصار مختبراً، وباحث فرق الأمم وسر سير العرب والعجم"<sup>(11)</sup>.

رسم ابن بطوطة لنفسه إذًا ملامح أبرزها بَلَدِيَّوُه ومجايلوه من العلماء المغاربة والأندلسيين والمشاركة؛ فهو في نظر بعضهم "رجل لديه مشاركة يسيرة في الطلب [...] وكانت رحلته على رسم الصوفية زياً وسجية"<sup>(12)</sup>. كما اعتُبر أحد "مشيخه طنجة" في القرن المذكور، "يحدّث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض"<sup>(13)</sup>. وهذا ما يقلل من التشكيك الذي لقيته رحلته في بعض الأوساط وما

القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، ينظر: أغناطيوس يوليانيوفتش كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، القسم الأول (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1963)، ص 405-438.

10 François Simiand, "Méthode historique et science sociale," *Revue de synthèse historique* (1903), re-edited *Annales, Economies, sociétés, civilisations*, vol. 15, no. 1 (1960), pp. 83-119;

جاك لوغوف، "التاريخ الجديد"، في: جاك لوغوف (إشراف)، **التاريخ الجديد**، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، مراجعة عبد الحميد هنية (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2007)، ص 107.

11 ابن بطوطة، مج 1، ص 151.

12 لسان الدين بن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان، مج 3 (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1975)، ص 273.

13 عبد الرحمن بن خلدون، **المقدمة**، تحقيق عبد السلام الشداوي، ج 4 (الدار البيضاء: بيت الفنون والعلوم والآداب، 2005)، ص 230-231.

أثارته من سجل ثقافي، مرد بعضه إلى "ضيق أفق [بعض] مسلمي المغرب الأقصى الذين لم يسافروا قط بعيداً عن بلدهم" (ص 368). ولذلك نزه ابن مرزوق التلمساني (ت. 781هـ/1379م) ابن بطوطة عن الكذب، قائلاً: "ولا أعلم أحدًا جال البلاد كرحلته، وكان مع ذلك جوادًا محسنًا"<sup>(14)</sup>.

خاص دان من خلال **مغامرات ابن بطوطة** تجربة بحثية تنبّه إلى أهمية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي وثنائيته الحضارية؛ ففي الوقت الذي يورخ لأزمة متعددة الأبعاد في أوروبا<sup>(15)</sup>، أنجب "الرؤساء الذين انفرد كل منهم بفنّ فاق فيه أقرانه"<sup>(16)</sup>، الذين حققوا مقاصد التأليف لدى المسلمين، وهي "سبعة: شيء لم يسبق إليه فيؤلف، أو شيء ألف ناقصًا فيكمل، أو خطأ فيصحح، أو مُشكّل فيُشرح، أو مطوّل فيختصر، أو مفترق فيُجمع، أو منثور فيرتّب"<sup>(17)</sup>. ومنهم ابن بطوطة الذي ما تفرق في كتب غيره، اجتمع في تحفته أو مغامراته كما دونها دان.



14 أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، السفر 3 (حيدرآباد: دار المعارف العثمانية، 1349)، ص 481.

15 Guy Bois, *La grande dépression médiévale, XIVe et Xve siècles. Le précédent d'une crise systémique* (Paris: Presses Universitaires de France, 2000); Guy Lemarchand, "Crise de la fin du Moyen Âge, féodalisme, crise, de l'Histoire," *Cahiers d'histoire. Revue d'histoire critique*, no. 85 (2001), pp. 129-136.

16 أحمد بن محمد المقرئ التلمساني شهاب الدين، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبيار وعبد الحفيظ شليبي، ج 3 (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1942)، ص 41.

17 المرجع نفسه، ص 34-35.

## References

## المراجع

### العربية

- . البحث في تاريخ المغرب: حصيلة وتقويم. سلسلة ندوات ومناظرات (14). الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس - أكادال بالرباط، 1989.
- . ابن الخطيب، لسان الدين. الإحاطة في أخبار غرناطة. تحقيق محمد عبد الله عنان. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1975.
- . ابن بطوطة، شمس الدين أبو عبد الله اللواتي الطنجي. رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. قدم له وحققه ووضع خرائطه وفهارسه عبد الهادي التازي. الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1997.
- . ابن خلدون، عبد الرحمن. المقدمة. تحقيق عبد السلام الشداوي. الدار البيضاء: بيت الفنون والعلوم والآداب، 2005.
- . الجابري، محمد عابد. نحن والتراث: قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي. ط 6. الدار البيضاء/ بيروت: المركز الثقافي العربي، 1993.
- . دان، روس إ. المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي: المواجهة المغربية للإمبريالية الفرنسية 1881-1912. ترجمة أحمد بوحسن. مراجعة عبد الأحد السبتي. الرباط: منشورات زاوية، 2006.
- . السبتي، عبد الأحد. بين الزطاط وقاطع الطريق: أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2009.
- . السبتي، عبد الأحد و حليلة فرحات. المدينة في العصر الوسيط: قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي. الدار البيضاء/ بيروت: المركز الثقافي العربي، 1994.
- . شهاب الدين، أحمد بن محمد المقرئ التلمساني. أزهار الرياض في أخبار عياض. تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبيار وعبد الحفيظ شلبي. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1942.
- . العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد بن حجر. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. السفر 3. حيدرآباد: دار المعارف العثمانية، 1349هـ.
- . فريدمان، توماس ل. العالم مستوي: موجز تاريخ القرن الحادي والعشرين. ترجمة حسام الدين خضور. دمشق: دار الحصاد والنشر والتوزيع، 2006.
- . القبلي، محمد. المجتمع والحكم والدين بالمغرب في نهاية "العصر الوسيط". تقديم كلود كاهين. الرباط: منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، 2017.
- . القدوري، عبد المجيد. المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز). ط 2. الدار البيضاء/ بيروت: المركز الثقافي العربي، 2012.
- . كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليانوفتش. تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم. القسم الأول. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1963.
- . كوثراني، وجيه. تاريخ التاريخ: اتجاهات- مدارس- مناهج. ط 2. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013.



• لوغوف، جاك (إشراف). **التاريخ الجديد**. ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري. مراجعة عبد الحميد هنية. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2007.

## الأجنبية

- Bois, Guy. *La grande dépression médiévale, XIVe et Xve siècles. Le précédent d'une crise systémique*. Paris: Presses Universitaires de France, 2000.
- Dunn, Ross E. *Resistance in the Desert Moroccan Responses to French Imperialism*. London: Croom Helm; Madison Wis.: The University Wisconsin Press, 1977.
- Eco, Umberto. *Lector in Fabula ou la Coopération interprétative dans les textes narratifs*. Myriem Bouzaier (trad.) Paris: Bernard Grasset, 1985.
- Lemarchand, Guy. "Crise de la fin du Moyen Âge, féodalisme, crise, de l'Histoire." *Cahiers d'histoire. Revue d'histoire critique*. no. 85 (2001).
- Simiand, François. "Méthode historique et science sociale." *Revue de synthèse historique* (1903), re-edited *Annales, Economies, sociétés, civilisations*. vol. 15, no. 1 (1960).

فهمي رضاني | Fahmi Romdhani\*

## مراجعة كتاب أخبار التونسيين: مراجعات في سرديات الانتماء والأصول

Book review of *Tunisian's Tales: Reviews of the Narratives of Aaffiliation and Origins*

المؤلف: لطفي عيسى.

عنوان الكتاب: أخبار التونسيين: مراجعات في سرديات الانتماء والأصول.

الناشر: دار مسكلياني للنشر والتوزيع، تونس.

سنة النشر: 2019.

عدد الصفحات: 350 صفحة.

\* أستاذ مبرز في التاريخ، معهد المغيرة فوشانة، تونس.

مما لا شك فيه أن حرفة المؤرخ اليوم لم تعد متصلة بتتبع وقائع الماضي وسرد أخبار الأزمنة الغابرة والعصور السحيقة وأحداثها، بل أصبح دوره أكثر ارتباطاً بقضايا العصر وإشكاليات الحاضر المعقد الذي ما انفك يطرح مسائل تكتسي أهمية كبيرة، وفي الوقت نفسه يتطلب الإلمام بها جهداً معرفياً ومنهجياً؛ فخارج حاجات الراهن، لا يمكننا الحديث اليوم عن تاريخ في حقيقة الأمر. ولا مندوحة من الإقرار بأن المؤرخ مطالب بأن يكون عنصرًا فاعلاً في المجتمع من خلال انخراطه في النقاش الثقافي والفكري السائدين، من أجل المساهمة في إيجاد إجابات عن المسائل التي قد تطفو على سطح الواقع بين الفينة والأخرى، والمساهمة أيضاً في فهم الماضي وتمثّل الحاضر واستشراف المستقبل.

في هذا الإطار، تُعتبر مسألة الانتماء وقضايا الهوية من أهم الإشكاليات التي أصبحت تحظى باهتمام مجتمعي متزايد، خصوصاً من المؤرخين، فضلاً عن كونها تُعدّ من الأسئلة التي تخترق المجتمعات العربية الإسلامية في الوقت الراهن؛ إذ لا يزال النقاش محتدماً بشأن السرديات والمرويات الجماعية ودور المؤرخ في إعادة تركيبها وصوغها وفق المستجدات الراهنة، تزامناً مع تحوّل اهتمامات العلوم الإنسانية، وعلى رأسها التاريخ، لدراسة الفرد والبحث في العناصر المشكّلة لشخصيته وانتمائه عبر التاريخ، بدلاً من كتابة تاريخ الإمبراطوريات والدول والسلالات، أو التأريخ للحروب والمعارك والأحداث.

هذا هو ما يجسده المؤلف الأخير للمؤرخ التونسي لطفي عيسى أخبار التونسيين مراجعات في سرديات الانتماء والأصول؛ إذ حاول من خلاله مراجعة السردية الجماعية للتونسيين بشدها إلى مختلف انتماءاتها، زمانياً ومكانياً، وإعادة تركيبها على نحو يخدم حاجات الراهن وقضايا الحاضر. ويمكن القول إن الكتاب تمثّل ونظر في قضايا مرتبطة بإستيمولوجيا المعرفة التاريخية وفلسفتها، وفي كيفية كتابة تاريخ تونس من جديد، وهو ما أصبح أقرب إلى تاريخ التونسيين من تاريخ البلاد. وفي هذا الباب، يرى المؤلف أنّ المؤرخين اليوم يجب أن يكتبوا تاريخ التونسيين، وليس تاريخ تونس (ص 336-337)، خصوصاً بعد التحولات الفارقة التي عرفتها البلاد مؤخراً، منذ عام 2011.

اعتمد المؤلف مقاربة استأنست بأحدث المناهج التي توصلت إليها الكتابة التاريخية لمعالجة العديد من الإشكاليات؛ إذ تكمن طرافة منهج المؤرخ في أنه اعتمد على مدونات مخصوصة، يمكن نعتها بالتاريخ الموازي، لم توضع بغرض التأريخ، إنما من أجل الحفاظ على المخزون التراثي غير المادي، معوّلاً في ذلك على خبرته الطويلة في مجال التأريخ وتمكّنه من مقاربات ومناهج حديثة ومعاصرة تستفيد مما وصلت إليه العلوم الإنسانية والاجتماعية من تطور معرفي ومنهجي على حد سواء.

لطفي عيسى هو مؤرخ تونسي، حاصل على شهادة التبريز في التاريخ وشهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، وهو متخصص في التاريخ الثقافي وتاريخ الذهنيات والتاريخ المقارن لمجال المغرب خلال الفترة الحديثة. نشر العديد من المؤلفات منذ بداية تسعينيات القرن الماضي، نذكر منها أخبار المناقب في المعجزة والكرامة والتاريخ<sup>(1)</sup>؛ ومميزات الذهنية المغاربية في القرن السابع عشر<sup>(2)</sup>؛ ومغرب المتصوّفة من القرن العاشر إلى القرن السابع عشر: الانعكاسات السياسية والحراك الاجتماعي<sup>(3)</sup>؛ وكتاب السير: مقاربات لمدونات المناقب والتراجم والأخبار<sup>(4)</sup>؛ وبين الذاكرة والتاريخ في التأسيس وتحولات الهوية<sup>(5)</sup>.

1 لطفي عيسى، أخبار المناقب في المعجزة والكرامة والتاريخ (تونس: سراس للنشر، 1993).

2 لطفي عيسى، مميزات الذهنية المغاربية في القرن السابع عشر (تونس: سراس للنشر، 1994).

3 لطفي عيسى، مغرب المتصوّفة من القرن العاشر إلى القرن السابع عشر: الانعكاسات السياسية والحراك الاجتماعي (تونس: مركز النشر الجامعي وكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 2005).

4 لطفي عيسى، كتاب السير: مقاربات لمدونات المناقب والتراجم والأخبار (تونس: دار المعرفة للنشر، 2007).

5 لطفي عيسى، بين الذاكرة والتاريخ في التأسيس وتحولات الهوية (الدار البيضاء: أفريقيقا الشرق، 2016).

كما أسهم في مؤلفات جماعية ومشاركة، نذكر منها **السلطة وهاجس الشرعية في الثقافة الإسلامية**<sup>(6)</sup>. وتحقيق كتاب **نور الأرماس في مناقب القشاش**<sup>(7)</sup> للمنتصر بن مرابط القفصي.

علاوة على ذلك، نشر العديد من المقالات والمساهمات العلمية في الدوريات العلمية المحكمة وأعمال الندوات والمؤتمرات والأعمال المهداة والكتب الجماعية والموسوعات العلمية والمجلات الثقافية والصحف والملاحق الثقافية. كما أنه يدير منذ عام 2011 مدونة رقمية تُعنى بتاريخ المغرب وبواقعها الراهن، السياسي والفكري والفني.

يُعتبر لطفي عيسى الذي يُدرّس في الجامعة التونسية منذ تسعينيات القرن الماضي، من أهم المجددين في الكتابة التاريخية في تونس، حيث يسعى دائماً للتطرق إلى المواضيع الراهنة والمعقدة التي يتطلب الخوض فيها إلماماً جيداً بالمعارف الإنسانية والاجتماعية وبالمناهج التاريخية الحديثة والمعاصرة، ويبدو أن كتابه الذي بين أيدينا في هذه المراجعة، والذي نال جائزة الطاهر الحداد للدراسات الفكرية، مغامرة فكرية تكشف عن الهواجس التي تُوّرّق فكر هذا المؤرخ منذ سنوات؛ إذ ما انفك يدعو إلى إعادة قراءة المروية الجماعية للتونسيين وإعادة تركيب سرديتها الجماعية بطريقة تخدم حاجات الحاضر.

يقع الكتاب في 350 صفحة، موزعة على أربعة فصول، مع مقدمة وخاتمة، مستعيناً في ذلك بمنتقيات بيبليوغرافية، وقد ختم كل فصل بمبحث طريف عبارة عن منتقيات مصدرية جاءت على سبيل المرافقة والحاشية والاستطلاع والإهداء.

يمكن اعتبار جلّ الفصول التي أثّرت هذا الكتاب تقصّياً لأخبار التونسيين وانتماءاتهم الجماعية عبر البحث في أزمنة متعددة من الذاكرة الجماعية؛ إذ انطلق المؤرخ عبر "الزمن الأسطوري" أو "زمن الحكاية" الذي حفر من خلاله في مدونة الخرافات والأمثال الشعبية، مبرزاً دورها في الكشف عن مميزات الشخصية التونسية، لينتقل بعد ذلك إلى "زمن المجال"، حيث أكد فيه حقيقة التنوع الذي تنطوي عليه مسألة الانتماء تونسياً، وربط تاريخ التونسيين وأخبارهم بمجالات جغرافية متنوعة ثبت تأثير تاريخها في صنع انتماءاتهم المختلفة. أما الزمن الثالث الذي وُسم بـ "زمن الرزنامة"، فمتمل زمن الاستطلاع وحب المعرفة الجدلي، حيث عالج فيه المؤرخ تنامي فضول النخب ورغبتهم في اكتشاف المعارف والعلوم ومعاينة الفكر التنويري. أما الزمن الأخير، فكان زمن الذات والوجدان، حيث احتوى مراجعات حول شخصية التونسيين من خلال البت في مميزاتها وفي العناصر الناعمة لها. وستتطرق إلى مضامين هذه الفصول الأربعة، محاولين عرض أهم الأفكار التي أوردتها المؤرخ في مؤلفه.

جاء الفصل الأول بعنوان "ديوان الخرافات الشعبية التونسية"، وهو حفر عميق في أركيولوجيا الخرافات والأمثال الشعبية التي لم تُعَرِّها الأبحاث التاريخية اهتماماً جيداً. ولئن انتمت هذه المدونة المصدرية إلى تراث غير مادي وشفوي، فإن أهميتها تكمن في أنها تنسج وشائج عميقة بين الماضي والحاضر، باعتبارها "بصمات ثقافية احتفظت بها ذاكرة جماعية حيّة" (ص 33)، وثقت للمشارك الجماعي ولمعيش السلف. واعتمد المؤرخ على كتاب سالم ونيس (1948) **الحكاية الخرافية والشعبية**<sup>(8)</sup>، وكتاب محمد رضوان العبادي **مجمع الأمثال الشعبية التونسية**<sup>(9)</sup>، محاولاً بذلك البحث عن مميزات شخصية التونسيين وعلاقة مدونة الحكايات والأمثال الشعبية بصنع أخبارهم وتشكيل ذاتقتهم.

6 حياة عاممو ولطفي عيسى ومنصف التايب، **السلطة وهاجس الشرعية في الثقافة الإسلامية** (تونس: دار أمل للنشر، 2005).

7 المنتصر بن مرابط القفصي، **نور الأرماس في مناقب القشاش**، تحقيق لطفي عيسى (تونس: المكتبة العتيقة، 1998).

8 سالم ونيس، **الحكاية الخرافية والشعبية** (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، 2016).

9 محمد رضوان العبادي، **مجمع الأمثال الشعبية التونسية** (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، 2018).

في هذا الإطار، ومن أجل التعمق أكثر في فهم شخصية التونسيين، يقترح المؤرخ التوقف عند لغة التونسيين أو لهجتهم وضرورة الإمساك بالمدلول الدقيق لها "فروح التونسي لهجته" (ص 35)، بحسب تعبيره. وأبانت الدراسات المختلفة التي لم يتوان المؤرخ في الاطلاع عليها والاستفادة منها أنّ التونسيين يتعاملون في ما بينهم وفق شيفرة خطابية تنم عن حضور آداب الكياسة والسلوك وتحليلهم أيضاً بخصلة الكرم التي نجدها خاصة لدى سكان الحواضر الذين امتلكوا معجم المجاملة عبر التراكم التاريخي، وكذلك بفضل ما اكتسبوه من تجارب وتقنيات عبر الإضافات الحضارية الوافدة.

عرض المؤرخ عيسى الخرافات التي تضمّنها كتاب ونيس، وهي خرافات ضاربة في القدم، تنتمي إلى أزمنة أسطورية بعيدة، توزعت بين حكايات الحيوان الخرافية والحكايات العجائبية التي يكون فيها للعجائبي والخوارقي مكانة كبيرة، ثم الخرافة الدينية والشعبية والفكاهية، مؤكداً أهميتها ودورها في الكشف عن المشترك الجمعي بين التونسيين، وأمطت حكايات الحيوان الخرافية اللثام عن تمثيلات التونسيين، سواء كانوا من سكان المدن أو من سكان البوادي والأرياف، لخصوصيات الوسط الذي عاشوا داخله وتعاملوا مع مختلف مكوناته. في حين أحالت الخرافات الدينية على معتقدات التونسيين الدينية؛ مثل الإقبال على تحصيل الثواب، وعشق نبي الإسلام، والتبرك بأهل البيت، وحب الصحابة. وعموماً، كشف النسيج الخرافي، بكل أصنافه، عن مخصص ما ترسب ضمن ذهنيات التونسيين الجماعية، فضلاً عما اكتنزه المخيال الجمعي من قيم أرسدت، من دون شك، المعالم الجوهرية لشخصيتهم، ونحتت القيم المنغرس في تجاوب شخصيتهم القاعدية.

يُنهي المؤرخ هذا الفصل بالإشارة إلى ملاحظة منهجية مهمة مفادها أن في إمكان الخرافة أن تتحوّل إلى شكل من أشكال التاريخ الذي يوثق عن طريق الذاكرة وفصاحة اللسان، كما أن اعتمادها على الترميز جعلها تنخرط في كل الأزمنة والأمكنة، لتصبح بذلك تراثاً جماعياً ومعيناً لا ينضب، له وظائف أخلاقية وسلوكية يسهل تعقب مغازيها ودلالاتها عبر ثنايا السرد (ص 69).

ينتقل المؤلف في ما بعد إلى **الزمن الثاني**، "الزمن المجالي" الذي اختار له عنواناً: "سردية الانتماء في مفتاح التاريخ"، وهو بحث في كتاب البشير صفر (1865-1917) (أحد زعماء الحركة الوطنية التونسية في بداية القرن العشرين) **مفتاح التاريخ**<sup>(10)</sup> - الذي لا يبتعد كثيراً في رأي المؤلف عن منجز المؤرخ الفرنسي جيل ميشله Jules Michlet (1874-1798) في خصوص تاريخ فرنسا - عن تعدد الانتماءات الجالية للتونسيين ومحاولة توسيعها لتفتح على غيريات جغرافية أليفة وأخرى غريبة، ثبت تأثير تاريخها في صنع انتماءاتهم المختلفة.

تطرّق المؤرخ في البداية إلى مسار شخصية البشير صفر (1865-1917)، حيث لم يتهيّب من اعتباره أبا النهضة التونسية الثاني بعد خير الدين التونسي (1820-1890)، نظراً إلى فريدة مساره الثقافي والعلمي ودوره في الدفع نحو التنوير والتحديث للخروج من وطأة الركود الذي كانت تزرع تحته البنى الفكرية والمادية. وكان لهذه الشخصية دور في مواصلة المشروع الإصلاحي والتحديثي الذي تجذّر منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر في البلاد التونسية. وتميّز نشاط البشير صفر الثقافي أيضاً بكتافته، حيث نشر مقالات عدة في جريدة **الحاضرة**<sup>(11)</sup>، اهتمت أساساً بالتعريف بالنظم السياسية والاجتماعية المحدثّة، والإحاطة بالأوضاع التاريخية والجغرافية لبلدان أوروبا، كما كان له اتصال مع النخب المشرقية التنويرية الداعية آنذاك إلى تحديث الفكر الديني والأخذ بأسباب التقدم والرقي، من أمثال محمد عبده ومحمد فريد. ألف البشير صفر أيضاً كتباً عدة، نذكر منها **الجغرافيا عند العرب**<sup>(12)</sup>؛ و**مفتاح التاريخ**، وهو مجموع الدروس التي ألقاها على طلاب الجمعية الخلدونية في المدة 1897-1908، حيث عرض فيه تواريخ متعددة ومتنوعة؛ إذ تطرق إلى تاريخ المصريين

10 محمد البشير صفر، **مفتاح التاريخ: مفكرات ومقالات تاريخية**، تقديم وتحقيق حمادي الساحلي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2009).

11 أول جريدة غير رسمية تصدر في البلاد التونسية بعد الاحتلال الفرنسي، صدر عددها الأول في 1888/8/12. واستمرت حتى عام 1911.

12 محمد البشير صفر، **الجغرافيا عند العرب**، ترجمة حمادي الساحلي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1987).

القدامى والرومان والإغريق والفينيقيين والقرطاجيين، مروراً بالعصور الإسلامية، ووصولاً إلى التاريخ الحديث للإمبراطورية العثمانية وتاريخ الأمم الأوروبية. وأبان ذلك كله عن وعي لدى البشير صفر في خصوص ضرورة توسيع الانتماءات الجغرافية للتونسيين وتعريفهم بحضاراتهم القديمة التي كان لها مجد أثيل قبل الحضور العربي الإسلامي فيها.

لذلك، اعتبر المؤلف أن العروض التي استجلبها البشير صفر في **مفتاح التاريخ**، والتي تناولت في جزء منها أصول سكان الإيالة وتاريخ قرطاج والحروب البونية، ثم الحضور الروماني وحركة الرومنة، مروراً بانتشار اللسان اللاتيني، ووصولاً إلى السلم الرومانية، ثم الحضور الوندالي، ثم البيزنطي، عملت كلها على محاولة مصالحة التونسيين مع تاريخهم القديم وتعريفهم بالأدوار الحضارية المهمة التي قامت بها البلاد التونسية خلال الفترة القديمة، وهي أدوار مجيدة، خلّدتها حضارات كان لها إشعاع علمي، مثل حضارة قرطاج البونية. ولا ريب في أن ذلك يمثل دعوة ضمنية إلى تجاوز المقاربات التي تركز إلى النوازع الإسلامية المركزية وتهمل الفترة القديمة السابقة على الحضور العربي الإسلامي، ولعل ذلك مثل توجيهها واعياً من البشير صفر، يروم من خلاله فتح أعين التونسيين على تاريخهم القديم الذي شهد بزوغ حضارات ازدهرت فيها العلوم والفنون والآداب، لإحاطتهم بتفصيلات هذا التاريخ كلها، وبث روح جديدة تناضل من أجل استعادة هذا الوطن المسلوب، فما أتاه البشير صفر شكّل، من المنظر الخاص بالمؤلف "نقطة فارقة أعادت فتح باب التفكير حول إشكالية الانتماء" (ص 111).

لم يقتصر جهد البشير صفر على محاولة مصالحة التونسيين مع تاريخهم القديم فقط، بحسب رأي المؤلف، بل إنه عمل أيضاً على توسيع مجالات انتماءاتهم ومحاولته تأكيد حقيقة تنوّع هذه الانتماءات الجغرافية والثقافية، وكانت الغاية من ذلك إعادة صوغ تمثّلهم مسألة الانتساب. وفي هذا الإطار، تعلّقت همة البشير صفر في محاولته عرض تاريخ مجالات جغرافية، سمّاها المؤرخ "الغريبات الأليفة"، وهي المجالات التي أحالت إلى انتساب التونسيين إلى "إمبراطورية إسلامية عالمية"، عبر سرد ونقل تواريخ أمم ومجالات تقاطع تاريخها مع تاريخ البلاد التونسية؛ إذ عرض البشير صفر تاريخ الإمبراطورية العثمانية وتواريخ العرب البائدة والعارية والمستعربة، وتاريخ الدولة الإسلامية منذ ظهور النبوة حتى العصور الكلاسيكية، كما توسع في استجلاب أوضاع ثلاثة مجالات اعتبارية، شدّت كتلة أخبارها، دون غيرها، المؤلف، وتضمّنت هذه الأخبار بلاد الأندلس من الفتح الإسلامي حتى موعد طرد المسلمين من غرناطة، وأوضاع بلاد المغرب الأقصى من الفتح حتى توقيع سلاطينها معاهدتي الحماية الإسبانية شمالاً وجنوباً، والفرنسية في ما بقي من التراب المغربي، ثم عرض أخيراً تاريخ السلطنة العثمانية من التأسيس حتى السنوات الأخيرة التي سبقت إعلان الجمهورية التركية وإلغاء الخلافة (3 آذار / مارس 1924). وأسهم المؤلف بذلك في تسهيل عملية إعادة تمثّل التونسيين إشكالية الانتساب بما يساعدهم، بحسب تعبير المؤرخ، في "تخفيف شعورهم القوي بالدونية الناتجة عن هامشيتهم المجالية التي جعلتهم يتأرجحون باستمرار بين صعوبة تجاهل البصمات الغربية الماثلة على أراضيهم والمتأصلة في ماضيهم البعيد وحاضرهم القريب من جانب وتغلغل الهوية الشرقية ذات المضمون العربي الإسلامي في جانب مواز" (ص 111-112).

لئن أحالت الغريبات الأليفة إلى انتساب التونسيين إلى إمبراطورية إسلامية عالمية، فإن الغريبات الغربية تناولت مجالات جغرافية تنتمي إلى الفضاء الأوروبي الغربي، حيث استحضر البشير صفر التواريخ الفارقة التي عاينها بعض الممالك الأوروبية، مثل فرنسا وإيطاليا والأمة الإنكليزية، وما ارتبطت به هذه الأمم من علاقات عريقة، ضاربة في القدم، بالبلاد التونسية، ذلك من أجل تأكيد تعدّد الغريبات الغربية المتصلة بتاريخ التونسيين وتنوّع انتماءاتهم الجغرافية وانفتاحها على مشترك حضاري وتاريخي كوني؛ إذ ما عاد الانتماء مرتبطاً بالفضاء العربي والإسلامي فحسب، بل أصبح يشمل أيضاً فضاءات غربية وغربيات ثقافية وحضارية، تؤكّد انفتاح البلاد التونسية أمام عوامل المتناقلة والاختلاط.

ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى **الزمن الثالث**، زمن الاستطلاع وحب المعرفة الجذلي، معتمداً على **الرزنامة التونسية** لمحمد بن الخوجة (1869-1942)، وأثر زين العابدين السنوسي (1901-1965) **تاريخ الأدب التونسي خلال القرن الرابع عشر هجري**، ليبرز لنا تنامي فصول التونسيين من النخب عند بداية القرن العشرين تجاه المعارف والآداب والفنون الجميلة ورغبتهم في التجديد والتحديث وشحن العزائم للخروج من التخلف والركود بعد أن ملأت أنفسهم الرغبة في الاستطلاع الشامل والبحث عن المعرفة الجذلي.

عرض المؤرخ في البداية مسارات بن الخوجة والسنوسي، حيث كان لكليهما مساهمة فعالة في النهضة الثقافية والحضارية في بدايات القرن العشرين، كما كان لهما دور في تطوير الحركة الأدبية والثقافية والدعوة إلى الإصلاح والتجديد والانشغال بجديد المعارف.

بالنسبة إلى بن الخوجة، توقف المؤلف عند إشكالية السياقات الخصوصية لمساره المهني والمعرفي، فهو من جهة مثقف ومؤرخ منشغل بالتاريخ التونسي ومولع به؛ ومن جهة أخرى موظف وإطار تونسي محسوب على الإدارة الاستعمارية، مؤكداً في الوقت نفسه ضرورة تجاوز بعض التقييمات غير المنصفة لمساره الفردي، حيث نجح بن الخوجة في تطوير أساليب صوغ المعرفة التاريخية ومراكمتها من خلال تركيب سردية تاريخية جديدة، تمحورت حول توضيح الخصوصيات المحلية لتاريخ التونسيين. وقد ساهمت مختلف أبحاثه التاريخية، بلا جدال، في تبسيط المعرفة بالتاريخ الوطني التونسي، وفي تأييد محتوى **الرزنامة التونسية** والإشراف على صدورها طوال الفترة الفاصلة بين عامي 1900 و1917.

أما في ما يتصل بسيرة زين العابدين السنوسي، فأشار المؤرخ إلى تأثيره بمسار والده الفكري والثقافي، حيث كان منصرفاً إلى الدعوة إلى الإصلاح وتطوير الحركة الأدبية والثقافية ومقاومة الاستعمار. وعلى الرغم من غياب المؤشرات الدالة على التزامه السياسي أو انضمامه إلى تيار أو حزب معين، فإن ما طبع مساره الفردي هو نشاطه الثقافي الدؤوب؛ إذ عمل في الصحافة ونشر مجلة **العالم الأدبي**، وصدرت له مقالات عدة في مجلة **البدر والزهرة والنهضة والحرية**، كما كانت له دراية واسعة باللغتين العربية والفرنسية، وتولّى بعد الاستقلال إدارة مؤسسة **الرائد الرسمي** فترة قصيرة. وعموماً، فإن ما ميّز مسار بن الخوجة والسنوسي هو "الانشغال بجديد المعارف وتقصي أنسلاخ مضامينها المحدثّة في أكناف المعارف القديمة التي مثلتها بطون المؤلفات التونسية أو الأجنبية الموضوعة في اللغة العربية أو تلك المنقولة والمترجمة إليها" (ص 162)، على حد تعبير المؤرخ.

بعد التعرض للمسارات الفردية لكل من بن الخوجة والسنوسي، يتناول المؤرخ ضمن مبحث ثانٍ من هذا الفصل مغامرة **الرزنامة التونسية** التي يمكن اعتبارها دليلاً لضبط التواريخ والتعريف بالمؤسسات السياسية القديمة والمحدثّة من الإدارة الاستعمارية، فضلاً عما تم تضمينه داخلها من عروض فلكية وفكرية وأدبية وحضارية وتاريخية ذات طبيعة تثقيفية وإعلانات تُعرّف بالمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والعروض الفنية والنشاطات الثقافية والصحف والمنشورات العمومية والخاصة، ويتنزل هذا المشروع ضمن سياق تاريخي اتّسم بوجود وعي جديد لفائدة ضبط الزمن وتحديده، في ظل تسارع التقلبات وتعدّد الابتكارات والاختراعات والاكتشافات؛ إذ صار التقييم من أوكذ ضرورات الحياة العصرية، سواء بالنسبة إلى الأمم المتحضرة أم إلى تلك التي لم تزال تعيش في تبعية ولم تستعد سيادتها على أراضيها.

يشكل هذا المشروع، من منظور المؤلف، "أبرز إسهام معرفي تجميعي أنجزه ابن الخوجة" (ص 170)، حيث استفاد منجز **الرزنامة** من التكوين الموسوعي لصاحبه وثقافته المتينة المتسمة بالتنوع، ومن معرفته الجيدة والدقيقة بالتاريخ التونسي. هذا فضلاً عن مساهماته الكثيرة في الصحف والمجلات العلمية، على غرار **الحاضرة؛ وشمس الإسلام؛ والمجلة الزيتونية**. وتمثّل مغامرة **الرزنامة** أيضاً "أداة توعوية غير مسبوقّة تونسيّاً" (ص 172)؛ إذ ساهم نشرها الدوري والسنوي في تطوير علاقة النخب المتعلمة والمهنيين من التونسيين بالفضول المعرفي والارتقاء بمستوى الحاجات الجديدة للمتعلم التونسي الطامح إلى ترسيخ الوعي باتتمائه إلى أمة منغرس في التاريخ،

وتطمح إلى إثبات ذاتها والخروج من واقع الوصاية الذي تردّت فيه. وعموماً، يهدف ما جاء به بن الخوجة في **الرزنامة**، إلى توسيع فضول النخب تجاه شتى تصانيف المعرفة، وشحذ فضولهم للاطلاع على تاريخهم الخاص وتاريخ باقي أمم المعمورة حتى يتسنى لهم الالتحاق بركب الحضارة والانخراط في التاريخ مع الأمم المتقدمة.

يشير المؤرخ أيضاً إلى فكرة مهمة تتمثل في أن من بين أهداف من عكفوا على تحرير مواد **الرزنامة** "محاولة التجاوب والتفاعل مع ما كانت تعرفه الأمم المتحضرة من جذوة في الإقبال على المعرفة الجذلي والرغبة في الاكتشاف والاستطلاع ومراكمة المعارف وتوسيع دائرة الثقافة العامة" (ص 201)، والتعرّف إلى كل ما هو جديد، وبذلك تكون مغامرة **الرزنامة** التي خاضها بن الخوجة نافذة مفتوحة على العالم الجديد الرحب ودعوة للتونسيين حتى يفتتحوا على جديد المعارف ويقبلوا عليها بكل شغف؛ إذ لم يعد لمدلول الرقيّ من معنى إذا ما تم اختزاله في ما حصله السلف.

لا تختلف كذلك مضامين الموسوعة التي أنجزها زين العابدين السنوسي المتعلقة بالأدب التونسي خلال القرن الرابع عشر الهجري عن العروض التي احتوتها **الرزنامة**؛ إذ عبّرت هي الأخرى عن مشروع ثقافي يرنو إلى التغيير واستيعاب سُنن الزمان وتوسيع آفاق المعرفة والتعريف بالأدب التونسية، فقد كان لزين العابدين السنوسي نشاط ثقافي وفكري مكثف، تجلّى من خلال مبادرته بإنشاء الصحف وإصدار المجلات ودعوته إلى تجديد مناهج المعرفة التاريخية وتدبّر واقع الأدب التونسي وتاريخه. وهذا ما نجده في ثنايا الموسوعة التي أنجزها حول الأدب التونسي في القرن الرابع عشر الهجري، حيث حاول التطرّق إلى تاريخ الأدب التونسي والتعريف بأعمال الشعراء والأدباء التونسيين؛ مثل محمد الشاذلي خزندار (1881-1954)، وحسين الجزيري (1894-1974)، وأبي القاسم الشابي (1909-1934)، وغيرهم، كما جمع بين النقد الأدبي والإبداع القصصي، وهذا ما يدل بوضوح على شغفه بالمعارف وتاريخ الثقافة التونسية والأدب الجميلة. واستعان المؤلف بمقالة مخطوطة للكاتب والروائي التونسي شكري المبخوت (1962) حول "قصة الأدب العربي في عهد النهضة"، لبيان نضج فكرة البحث التاريخي عند السنوسي وطرافة إنتاجه الأدبي، حيث أكد فكرة مفادها أن الغرب تحوّل بحدائته العلمية والتكنولوجية والاقتصادية والإبداعية إلى مرجعية مطلوبة لقيام أدب عربي مناسب للوضعية الجديدة التي صار يعيشها العالم العربي في بداية القرن التاسع عشر، وهذا ما كان يسعى له السنوسي؛ إذ كشفت مختلف إنتاجاته الفكرية وإبداعاته الأدبية قدرات استثنائية "بوصفه مؤلفاً مُلهماً ومؤرخاً وناشراً آمناً بالانتماء إلى وطن وفكر وأمة" (ص 209)، من جهة، واستيعابه مختلف تصورات وتوجهات نقاد الأدب المشاركة والغربيين، من جهة أخرى. وقاد ذلك المؤرخ إلى الدعوة إلى ضرورة "تعديل الرؤية الحدية المنقوصة التي استندت عليها السردية التاريخية لمشروع الدولة الوطنية وذلك عبر توضيح أشكال اشتراك النخبة الزيتونية المنحازة إلى معاني الإصلاح والتحديث والعمل على تحرير الوطن واستعادة السيادة" (ص 233).

يمثل الفصل الرابع (الأخير) "زمن الذات أو الزمن الوجداني"، وهو فصل أراد من خلاله المؤرخ البحث في العناصر الناظمة الشخصية التونسية، من خلال التعويل على العروض التي وردت في مؤلف محمد بن عثمان الحشايشي (1853-1912) **العادات والتقاليد التونسية**<sup>(13)</sup>، وما خطّه الأب ديمرسمين (1901-1993) في مقالاته.

لئن عمل الحشايشي على البحث في مضمون الثقافة المادية ومختلف المعارف والقيم والمعايير التي طبعت تصرّفات التونسيين، محاولاً في ذلك توسيع اطلاع الإدارة الحامية على ما شكّل الشخصية القاعدية للتونسيين، فإن ما خطّه الأب ديمرسمين، يعتبر محاولة لوضع أسس نظرية للشخصية التونسية والعناصر الناظمة لها من أجل فهم واقعهم المعيش أكثر فأكثر والتعمّق فيه.

13 محمد بن عثمان الحشايشي، **العادات والتقاليد التونسية: الهدية أو الفوائد العلمية في العادات التونسية**، تحقيق الجيلاني بن الحاج يحيى، تقديم محمد اليعلاوي (تونس: سراس للنشر، 1994).



انطلق المؤلف، في مبحث أول من هذا الفصل، من فكرة الشخصية التونسية بين المعارف الإنسانية والعروض المدرسية. وقد بين في البداية اهتمام علماء الاجتماع والمؤرخين ورجال الآداب والحضارة بالبحث في مسألة الشخصية التونسية، حيث ألقوا في شأنها العديد من الدراسات التي يُمكن أن نذكر منها مؤلف المؤرخ هشام جعيط (1935-2021) **الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي**<sup>(14)</sup>. ومؤلف المفكر ووزير الثقافة الأسبق البشير بن سلامة (1931-) **الشخصية التونسية: مقوماتها وخصائصها**<sup>(15)</sup>. وكذلك مؤلف أستاذ علم الاجتماع المنصف ونّاس (1956-2020) **الشخصية التونسية: محاولة في فهم الشخصية العربية**<sup>(16)</sup>، وأخيرًا الدراسة الطريفة للمؤرخ الهادي التيمومي (1949-) **كيف صار التونسيون تونسيين؟**<sup>(17)</sup>. وعالج هؤلاء جميعهم مفهوم الشخصية التونسية وفق مناهج مختلفة، مثل المنهج الثقافي والمنهج التحليلي النفسي الثقافي والمنهج السوسيو-تاريخي. وعلى الرغم من ذلك، فإن مسألة الشخصية القاعدية التونسية تبقى مفهومًا غامضًا، يصعب تعريفه بدقة، أو الإلمام بمختلف جوانبه، كما أشار إلى ذلك المؤرخ.

في إطار إلقاء نظرة على تصوّرات العروض التاريخية المدرسية وعلاقتها بالهوية التونسية، من خلال الاستعانة ببعض الدراسات والبحوث الجامعية، يُبرز المؤلف العلاقة الوطيدة بين الشخصية الوطنية التونسية والكتب المدرسية للتاريخ، ويعود ذلك - في نظره - إلى الاختيارات السياسية من جهة، حيث تحاول السلطة دائمًا فرض قراءة معيّنة للتاريخ، توظّفها لمصلحتها وللتحديات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية من جهة ثانية. ويُقرّ كذلك بأن الذاكرة المدرسية ما زالت تقدم إلى الناشئة التونسية مقارنة أقرب إلى القراءة السياسية للتاريخ من المعالجة المعرفية المتوازنة، "تجسيدًا لاختيارات الفاعلين السياسيين الرامية إلى إضفاء مزيد من الشرعية على السلطة الحاكمة من دون أن يحصل تصالح بينها وبين الواقع التاريخي" (ص 273).

يتخيّر المؤرخ في ما بعد الوقوف عند جوانب من سياقات مسار الأب ديمرسمين وعثمان الحشايشي اللذين كانت لهما توجهات تراثية غير خافية؛ إذ كان الأب ديمرسمين منفتحًا على التراث التونسي ومولعًا بالبحث الدقيق في واقع التونسيين ومميزات شخصيتهم، على الرغم من تمسّكه بالهوية الدينية وسيطرة الشاغل التبشيري الكاثوليكي عليه. أما الحشايشي، فعلى الرغم من انهياره بمنجز الدولة الحامية وانحيازه إلى الوعود التي قدّمتها الحماية الفرنسية في خصوص نشر رسالتها الحضارية وانتشال التونسيين من الجهل، فإن مساره يؤكد انخراطه ضمن مشروع حرص على متابعة شخصية التونسيين وعاداتهم وصنائعهم وتقاليدهم وكل ما يمتّ بصلة لمعيشهم اليومي. لذلك، يستنتج المؤرخ أنه على الرغم من اختلاف مسار تكوين الشخصيتين، فإنهما تشتركان في كونهما قد عملتا على تعقّب نسق التونسيين اليومي ومحاولتهما التعمّق أكثر في سمّات شخصيتهم على صعيد التاريخ، وعلى صعيد الموروث المادي والثقافي أيضًا.

لا ريب في أن فهم شخصية التونسيين يتطلّب البحث في ما راكموه من موروث ثقافي، من أجل فهم خصوصيات المجال الذي استوطنوه، وكيفية تمثّلهم واقعهم المعيش، وللقيام بذلك، يستند المؤرخ إلى العروض التي اكتنزها كتاب الحشايشي، الذي لا يختلف كثيرًا عن أساليب البحوث الإثنولوجية التي قام بها المستكشفون والمولعون بالرحلة من الأوروبيين، حيث عرض فيه الحشايشي كل ما يميز التونسيين من تقاليد وعادات تخص التنشئة وأساليب التحصيل، وكل ما يتعلق بأعمالهم وأخلاقهم وطباعهم أيضًا "منذ بروزهم في الأرحام إلى أن يوضعوا في الرغام" على حد قوله، ما يحيلنا على المشترك الثقافي للتونسيين الذي يكشف، بلا شك، عن ثوابت الشخصية التونسية وتحولاتها.

14 هشام جعيط، **الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي** (بيروت: دار الطليعة بيروت، 2008)، أما النسخة الأصلية فصدرت عن الدار الفرنسية ساي في عام 1974.

15 البشير بن سلامة، **الشخصية التونسية: مقوماتها وخصائصها** (تونس: مؤسسات بن عبد الله، 1974).

16 المنصف ونّاس، **الشخصية التونسية: محاولة في فهم الشخصية العربية** (تونس: الدار المتوسطة للنشر، 2010).

17 الهادي التيمومي، **كيف صار التونسيون تونسيين؟** (تونس: دار محمد علي الحامي، 2014).

ينتقل المؤلف في ما بعد إلى الحديث عن ثوابت الشخصية التونسية وتحولاتها؛ إذ اعتمد على بعض المقالات التي نشرها الأب ديمرسمين في المدة 1958-1961، المتعلقة بمحددات الشخصية التونسية، حيث يُقرّ المؤرخ في البداية بضرورة تبني أشكال التداخل بين المعارف الإنسانية والاجتماعية لدراسة مكونات الشخصية التونسية التي تبقى مهمة عسيرة جداً، نظراً إلى صعوبة تمييز العناصر الثابتة من العناصر المتحوّلة، مؤكداً في الوقت نفسه على تفرّد شخصية التونسية؛ إذ يظهر ذلك من خلال امتلاكهم لهجة تحيل على معانٍ مخصوصة، وتسمّ بمرونتها وتشعبها ويتنظم فيها الخطاب وفق شيفرة خاصة.

انتهى المؤرخ إلى بيان الأبعاد التي أسهمت بحظ وافر في بناء الشخصية القاعدية للتونسيين، وهي الوحدة والتنوع والتواصل. فالشخصية التونسية تتسم في الوقت نفسه بالوحدة والتنوع؛ إذ نجد عند المجتمع التونسي قدرة على إنجاز تجانس مذهل، على الرغم من تنوع العناصر النازمة لاتمائه وتعددها، وهي متمثلة في الأصول العرقية واللغة والدين والحضارة. وفضلاً عن ذلك، تتسم الشخصية التونسية بالامتداد والتواصل، وهذا ما يظهر من خلال توافر الموروث التاريخي في أبعاد ثلاثة ثابتة: ذاكرة الأساطير المؤسسة، والإسهام في الحضارات المتوسطية، والتعبير عن التمسك بالتقاليد. ويُستنتج من خلال ذلك أن خاصية المرونة تشكل عنصراً محورياً ضمن الشخصية القاعدية للتونسيين مع قدرتهم الفائقة على التأقلم.

على الرغم من ذلك، فإن المؤرخ لا يتوانى في الإقرار بتشعب الشخصية التونسية واشتمالها على تصورات سلوكية متناقضة ومتضاربة في بعض الأحيان؛ "إذ يحرص التونسيون على تحقيق توازن بين الأضداد، فهم يزاوجون بشكل لافت ومربك حقاً بين الكياسة والخشونة والمرونة والتصلّب والرجولة والاعتزان" (ص 320). وعموماً، ختم المؤرخ هذا الفصل بالإشارة إلى أن ما خطّه الحشاشيني من أفكار تعلّقت بتقاليد التونسيين وعاداتهم، يتوافق مع مشاغل الأب ديمرسمين، حيث انخرط الاثنان في البحث عن الجينوم الثقافي للتونسيين من خلال سبر مختلف تصرفاتهم وإدراك مكونات شخصيتهم وخصوصيات عوالمهم السطحية.

مثّلت خلاصة الكتاب مراجعات منهجية وإستيمولوجية في خصوص راهن الكتابة التاريخية، حيث أكد ضرورة تسلّح مؤرخ اليوم بأدوات معرفية ونظرية جديدة لمقاربة إشكاليات مختلفة ما انفكت تتزايد، وتكمن أهمية هذا المؤلف في أنه نجح في استقراء مصادر محسوبة على التاريخ الموازي، وذلك لإعادة قراءة ماضي التونسيين والعوص في أخبارهم لبناء مروية جماعية جديدة تستجيب لمتطلبات المرحلة الراهنة، وتعيد صوغ السردية الوطنية بالبحث في الأزمنة المفقودة داخلها. وقد لا نبالغ إن قلنا إن الكتاب لا يعدو أن يكون تأكيداً من المؤرخ على فكرة طريفة مفادها أن الهوية لا يمكن أن تكون إلا أرضاً متحركة متجددة تأبي الثبات، وتنزع دائماً إلى احتضان التنوع والتعدد والاختلاف.



## References

## المراجع

- بن سلامة، البشير. الشخصية التونسية: مقوماتها وخصائصها. تونس: مؤسسات بن عبد الله، 1974.
- بن مرابط القفصي، المنتصر. نور الأرماس في مناقب القشاش. تحقيق لطفي عيسى. تونس: المكتبة العتيقة، 1998.
- التيمومي، الهادي. كيف صار التونسيون تونسيين؟ تونس: دار محمد علي الحامي، 2014.
- جعيط، هشام. الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي. بيروت: دار الطليعة بيروت، 2008.
- الحشايشي، محمد بن عثمان. العادات والتقاليد التونسية: الهداية أو الفوائد العلمية في العادات التونسية. تحقيق الجيلاني بن الحاج يحيى. تقديم محمد يعلاوي. تونس: سراس للنشر، 1994.
- رضوان العبادي، محمد. مجمع الأمثال الشعبية التونسية. تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، 2018.
- صفر، محمد البشير. الجغرافيا عند العرب. ترجمة حمادي الساحلي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1987.
- \_\_\_\_\_. مفتاح التاريخ: مفكرات ومقالات تاريخية. تقديم وتحقيق حمادي الساحلي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2009.
- عمامو، حياة ولطفي عيسى ومنصف التايب. السلطة وهاجس الشرعية في الثقافة الإسلامية. تونس: دار أمل للنشر، 2005.
- عيسى، لطفي. أخبار المناقب في المعجزة والكرامة والتاريخ. تونس: سراس للنشر، 1993.
- \_\_\_\_\_. مميزات الذهنية المغاربية في القرن السابع عشر. تونس: سراس للنشر، 1994.
- \_\_\_\_\_. مغرب المتصوفة من القرن العاشر إلى القرن السابع عشر: الانعكاسات السياسية والحراك الاجتماعي. تونس: مركز النشر الجامعي وكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 2005.
- \_\_\_\_\_. كتاب السير: مقاربات لمدونات المناقب والتراجم والأخبار. تونس: دار المعرفة للنشر، 2007.
- \_\_\_\_\_. بين الذاكرة والتاريخ في التأصيل وتحولات الهوية. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2016.
- ونّاس، المنصف. الشخصية التونسية: محاولة في فهم الشخصية العربية. تونس: الدار المتوسطة للنشر، 2010.
- ونيس، سالم. الحكاية الخرافية والشعبية. تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، 2016.